(٩)

والقذارة عيب أكبر!*

قرأت فى جريدة مصرية تصدر فى القاهرة باللغة الإنجليزية رسالة من ضيفة أجنبية تبدى إعجابها بمصر وتمتدح الحياة فيها ولكنها تشكو من «الوساخة» والكلمة آلمتنى ولكنها أعجبتنى؛ لأننى أنا أيضا أشكو من قذارة القاهرة وأتعجب من إهمال الناس عندنا للنظافة، فأنا وأسرتى طول النهار فى تنظيف، وعندما أضع يدى على منضدة أو «شيفونيرة» وأحس تحت يدى بطبقة خفيفة من التراب تغطيها أسارع إلى فوطة وضعناها هناك وأزيل التراب.. إنه تراب قليل هذا صحيح ولكنه قذارة فليست هناك قذارة قليلة أو كثيرة لأن النظافة شىء واحد وهو لا يتجزأ.

وأنا عندما أشترى شيئا من محل تجارى فأنا لا أضع يدى أبدا على الأشياء لأننا تعودنا على النظافة منذ الصغر وأذكر أننى ذات مرة جلست للعشاء وأتتنا الخادمة بطبق فيه أرز لنغرف منه ولأمر ما لم يعجبنى الأرز فامتنعت عن أكله، وكان لى أخ صغير فأمرته بألا يأكل من هذا الأرز، وقالت الخادمة إذن فأنت تريدنى أن أعمل هذا الأرز والقى به فى الزبالة؟ قلت لها: لا أدرى ولكننا لا نستطيع أن نأكل من هذا الطبق ونحن لا ندرى ماذا فيه فقالت: أنا لا أجد فيه ما يضيرنى ولو تركتموه أنتم فأنا آكله كله، وأكلته كله وقمنا نحن للاستذكار فإذا كنا فى وسط العمل سمعنا صوت هذه الخادمة تتأوه،فأسرعنا إليها ولم نستطع أن نفعل شيئا والمسكينة ماتت فى عيادة طبيب أخذناها إليه وقد أطال الطبيب الكشف عليها قبل أن تموت وكتب الطبيب تقريرا إلى النيابة وأخذ أبى التقرير وسأل الطبيب لماذا ماتت هذه المسكينة يا دكتور؟ قال من الطعام وأظن أنكم لاحظتم أن بعض هذا الطعام كان لا يمكن أكله فقلت: الأرز يا دكتور كانت

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٤ يونيو ١٩٩٢م.

رائحته غير مطمئنة وقد رفضنا نحن الأكل منه ولكنها هى أكلته كله فهز الطبيب رأسه وقال نعم إنه الأرز وأرجوكم ألا تتركوا مثل هذا الطعام فى البيت أبدا.

وكانت أول وظيفة حكومية عينونى فيها بعد تخرجى فى الجامعة وظيفة مدرس فى مدرسة دكرنس الابتدائية وكان يدير المدرسة وكيلها فلم يكن عندنا ناظر، وبعد دخولى فى العمل مرض الوكيل ومات قبل أن يخرج إلى المعاش بأسبوعين فعينني الدكتور السنهورى وكيلا للمدرسة دون تعيين رسمى وكنت أحبه جدا لأنه كان لا يتوقف عن العمل أبدا، فلما صرت وكيلا أتى المحافظ لزيارة المدرسة وكان رجلا ممتازا يحمل لقب الباشوية ولم تعجبه المدرسة وقال لى ألا تضايقك دورة المياه فى المدرسة قلت طبعا لا تعجبنى ولكن ماذا نفعل؟ لابد لنا من إنشاء دورة مياه جديدة ولكن من أين النقود؟ فقال الباشا إذا وعدتنى بأن تشرف بنفسك على هدم هذه الدورة وبناء دورة جديدة أعطيتك ما يلزمك من تكاليف، وصدق الرجل فى وعده وأعطانى خمسمائة جنيه وأنشأت لجنة فى المدرسة للإشراف على الهدم والبناء، وبينما كان المقاول يعمل قلت لإخوانى المدرسين أعتقد أن الدورة الجديدة فى حاجة إلى مراقبة وإلا فستصبح مثل القديمة المهدومة فى أقل من شهر، وفى رأيى أننا لابد أن ندرس النظافة للأولاد فإن الوساخة لا تقتصر على دورة المياه ولكن الفصول والممرات وحوش المدرسة كلها فى حاجة إلى نظافة، فقال أحد الزملاء إن النظافة لا تدرس يا أستاذ إنها تعلم والأسرة هى التى تعلم أولادها النظافة، وأعتقد أنك ستدهش لو رأيت البيوت ولهذا فمن رأيى أن تتعلم الأسر النظافة.. فما رأيكم فى أن ننشئ من المدرسين والإداريين لجانا تزور البيوت وتعطى التعليمات للآباء والأمهات. وفعلا قمنا بذلك ولا أصف لك أحوال البيوت، وكنت أقول للآباء والأمهات إيه ده يا ناس كل شىء فى بيوتكم فى حاجة إلى تنظيف وترتيب من مداخل البيوت إلى السلالم إلى الشقق؟ ألا تستطيعون الإشراف على بيوتكم وتنظيفها؟ لقد أنشأنا دورة مياه جديدة فى المدرسة وعندنا لجنة من الإداريين والمدرسين للإشراف على هذه الدورة الجديدة فما رأيكم

فى أن تنشئوا فى كل بيت لجنة للنظافة، وهذه اللجنة تراقب الأولاد وتعلمهم النظافة، فقد وجدنا محافظا محترما هذه المرة ولكنى لا أدرى من أين نجئ بالمال لأننا أضطررنا إلى هدم دورة المياه القديمة فى المدرسة وبالفعل وضعنا نظاما للآباء والأمهات لكى يزوروا المدرسة فى مواعيد معينة لأننا نريد أن تكون مدرستنا فى غاية النظافة، وكانت قد تبقت لنا من نقود المحافظ بقية قليلة فأخذتها زوجة الباشا المحافظ وأضافت إليها واشترت لكل تلميذ حذاء ولا أنسى كيف كان التلاميذ يأتون إلى المدرسة فى الصباح وأحذيتهم تحت إبطهم وكنا نأخذهم إلى دورة المياه ليغسلوا أرجلهم ويلبسوا الجوارب والأحذية، وقد تغيرت بذلك أحوال المدرسة وأصبحنا نعيش فى المدرسة فى عالم منتظم نظيف وعلى هذه الحالة تركت المدرسة لأذهب إلى البعثة الدراسية التى منحتها لى الجامعة، ولا أصف لك سعادتى عندما أتت لجنة من إخوانى المدرسين والآباء والأمهات لوداعى فى محطة السكة الحديد فى المنصورة.

وكنت واثقا من أن المدرسة ستسير بعد ذلك على أحسن نظام لأننى لاحظت أن الخصائص الإنسانية والحضارية يرتبط بعضها ببعض فأنت إذا أدخلت فكرة النظافة فى جماعة فإن النظام سيدخلها من تلقاء نفسه، فأنا أذكر أنهم فى أيامنا كانوا يعلموننا النظافة فى البيت وكانوا يستعملون القوة فى ذلك، ولا أذكر لك كم علقه تفضلوا علىَّ بها لكى أتجه إلى الحمام عند انتهائى من اللعب وعودتى إلى البيت فى المساء، وقد تعلمت النظافة، ولكن تعلمت معها النظام فأنا بعد أن أغتسل وأغير ما لابد من تغييره من ملابسى كان ينبغى على أن أجلس مع من يكون حاضرا من أفراد الأسرة للعشاء فى صالة البيت لأنه كان علىَّ بعد ذلك أن أغسل يدىَّ والترابيزة الكبيرة فى الصالة وكنا نستعملها فى كل شىء وكنت أذاكر إلى الحادية عشرة مساء، وأذكر أننى كنت أجد لذة كبرى فى الاستذكار ورسم الخرائط وعمل البراويز الأنيقة لها.

وكنت أبذل غاية الجهد فى استذكار اللغة الإنجليزية لأن مدرس هذه اللغة كان رجلا رذلا جدا، وكان بختى معه سيئا جدا، وقد أخذت منه

اللغة على أصولها، وكنت سعيدا جدا بذلك، وأذكر أن مدرس الترجمة أعطانى قصة إنجليزية هدية وقد أعجبتنى فحفظتها عن ظهر قلب، وقد أفدت من ذلك فائدة كبيرة لأن القصة كانت تحمل معنى حضاريا عظيما، فقد كان موضوعها العدوان الأوروبى على الهنود الحمر فى أمريكا، ولاحظت أن لغتى العربية تحسنت بعد ذلك، وكان مدرس اللغة العربية يعجب بالموضوعات الإنشائية التى كنت أكتبها ويأمرنى بقراءتها فى الفصل، وكنا فى السنة الثانية الثانوية وبيننا وبين شهادة الكفاءة سنة واحدة، وقد اجتهدت اجتهادا بالغا فى المذاكرة وعرفت أن كل الصفات الطيبة يتماسك بعضها ببعض ومن يومها أحببت المدرسة والمدرسين وزملائى الطلاب وحصلت على الكفاءة بمستوى طيب واستيقظت عندى آمال فى أن أكون شيئا فى الحياة، وسرت فى حياتى بعد ذلك على أساس أن النظافة والنظام والعمل والاستذكار كلها يشد بعضها بعضا، فكانت أيام الأسبوع كلها عملا عدا يوم الخميس، أما يوم الجمعة فكان كله عملا قبل الصلاة وبعدها، وكان الركن الصغير الذى أعطونى إياه فى البيت غاية فى النظام والنظافة، وعندما ذهبت فى البعثة إلى فرنسا وعشت فى باريس وزرت لندن عرفت أن هذه الصفات الإيجابية كلها هى ما نسميه بالحضارة، وكنت سعيدا جدا بالحياة والعمل معهم، وكنت أعمل هناك مع أستاذ فرنسى ممتاز، وهذا الرجل أعجبه إقبالى على العمل، وإتقانى له فأعطانى عملا صغيرا فى مكتبات جامعة باريس، فكنت أمينا للقسم العربى من هذه المكتبات، فكنت أبدأ العمل فى الساعة الثامنة والنصف صباحا، وأقوم بكل الخدمات التى يطلبها الأساتذة وأوصلها إليهم فى البيوت، وأذكر أن واحدا منهم كان يعمل فى مجلس الوزراء فكنت فى الغالب لا أجده فى بيته عندما آخذ العمل إليه، ولكنى كنت أجد عند زوجته تعليمات دقيقة فأسلمها العمل وتدعونى للعشاء، وكان العشاء متواضعا جدا، ولكننى كنت أستمتع به لأننى كنت أتعشى مع حرم الأستاذ وابنتيه، وكان المستوى الأدبى رفيعا جدا فكنت أقول فى نفسى

وأنا عائد إلى بيتى قرب الساعة العاشرة: إذن فهذه هى الحضارة! وماذا تكون الحضارة إلا النظام والنظافة والعمل والإتقان؟.

أقول هذا لأننى أجد الكثيرين من الناس حولى فى مصر يصرون على الأكل على الطبلية وباليدين ويقولون: هذه هى تقاليدنا الحضارية ولابد أن نتمسك بها، وأنا أقول لهم: لا يا سادتى هذه ليست تقاليدنا، والمصريون القدماء لم يكونوا يأكلون على الأرض ولا على الطبلية، ولم يكونوا يأكلون بأصابعهم، وهذه هى الملاعق والسكاكين فى قبور الفراعنة تدلك على أصولنا وكيف كنا نأكل، أما الكسل والأكل بالأصابع فأشياء غريبة عنا ولا أعلم كيف غزتنا فى بيوتنا، وأذكر أننى فيما مضى كنت أزور القرية وأجلس للطعام ويصر أخوانى الفلاحين على القول بأن الأكل المصرى ينبغى أن يكون على الأرض وبالأصابع وكنت أقول لهم: لا يا أيها الأعزاء إننا ناس محترمون من ألوف السنين فإن أجدادنا كانوا يأكلون على الترابيزات لا على الطبالى، وكانوا إذا أكلوا بالأصابع فلابد من غسل اليدين قبل الأكل وبعده، أما أن تأكل بأصابعك ثم تمسح كفا بكف وتطلب الشاى فهذه عادات ليست مصرية، وإذا كان الواحد منكم مستعدا لغسل يديه قبل الطعام وبعده فلا بأس بذلك؛ لأن الحضارة هى النظافة ولا دخل فيها للطبلية أو الأصابع، فلتأكلوا كما تشاءون، ولكن المهم هى النظافة والنظام والعمل والإتقان، وأذكر أن إحدى معارفنا فى القرية دعتنى للغداء عندها مع أسرتها، ولم نكد نجلس حتى أخذت دجاجة محمرة بيدها ووضعتها فى الطبق أمامى وقالت: تفضل! هذا جزء من غدائك فقلت لها: بكل سرور سآكل هذه الفرخة لأن منظرها جميل جدا، لكن قولى لى: لماذا تمسكينها بيدك وتضعينها أمامى وعندك فيما أرى الشوك والسكاكين؟ وفيم كان يضرك أن تأخذيها فى طبق أمامك وتقطعيها بالشوكة والسكين ثم تضعى الطبق كله أمامى؟.

ومن أكبر عجائب الدنيا هى العلاقة الوثيقة بين الأمراض والقذارة، فإن الأمراض تنمو نموا خطيرا فى أى موضع قذر، فالكوليرا مثلا مرض خطير

ولكن ميكروب الكوليرا فى غاية الضعف.. فهو لا يعيش تحت درجة حرارة ٤٠ ولا يعيش فوق درجة حرارة ٤٠، ولو أنك أخذت إناء يتوافر فيه هذا الميكروب ووضعته فى الثلاجة فإن ميكروب الكوليرا يموت فى دقائق لأنه لا يتحمل البرد، وقد قال العلماء من سنوات قليلة إنهم قضوا على ميكروب الكوليرا ولم يعد هذا المرض خطرا على الحياة على وجه الأرض، ولكن ها نحن أولاء نقرأ الآن أن حمى الكوليرا عادت إلى الظهور والانتشار والسبب هى القذارة التى تنتشر فى الكثير من بلاد الدنيا فى آسيا وأفريقية وبعض بلاد أمريكا الوسطى والجنوبية، ونحن فى مصر اليوم ينبغى أن نحذر الآن من عودة الكوليرا إلى الظهور فى مصر، لأننا مع الأسف الشديد لا نهتم بالنظافة كما ينبغى، وأنا لا أنسى بشاعة وباء الكوليرا عندما انتشر فى مصر سنة ١٩٤٨م فيما أظن فقد كنا فى أيامها لا نجرؤ على الخروج من بيوتنا، وأنا شخصيا كنت أذهب للعمل فى الجامعة سيرا على الأقدام خوفا من التزاحم مع الناس فى وسائل المواصلات، وكنت لا آكل أو أشرب شيئا فى الجامعة خوفا من الناس والكوليرا، فإذا انتهى عملى فى الجامعة عدت إلى بيتى سيراً آمنا.. وهناك كنت أتغدى فى الساعة الحادية عشرة صباحا ثم أخرج إلى دار الهلال.. وهنا كان لابد من أن آخذ الأوتوبيس وأنا فى أشد الخوف، فإذا وصلت إلى مكان العمل أخرجت من الدرج قطعة صابون وغسلت يدى ووجهى ثم أشرع فى العمل. وكان بعض أصحابى يسخرون منى ويقولون: هذا كلام أطباء يا فلان، وهم يخيفوننا لكى يزداد مراكزهم بيننا، وكنت أقول لهم: أما أنا فإننى أثق فى الأطباء ولا أريد أن تغزونى الكوليرا وتقضى علىّ لأن هذا المرض يا إخواننا يعيش على القذارة، ونحن فى مصر ميدان خصب للأمراض بسبب القذارة، والقذارة عندنا تبدأ من هذا الغبار الذى يغطى كل شىء عندنا.

وأنا أغسل مكتبى هنا بالماء والصابون ولا أجففه لأننى غير واثق من نظافة الفوطة، وهذه الفوطة أغسلها فى آخر الأسبوع. فأخذها إلى البيت

وأتى بأخرى مغسولة من البيت لأننى أكره الكوليرا، ولا أريد أن تحملنى إلى الموت، نعم إننى لابد ميت يوما من الأيام ولكن ليس بالكوليرا لأنها على ضنف ميكروبها فهى إذا تمكنت من البدن استطاعت أن تجففه، والله سبحانه وتعالى يحمينا من القيء البشع المتوالى الذى يستمر حتى يجف البدن ويموت الإنسان، وقد اشتركت فى عمل استطلاع للمجلة عن عدوى الكوليرا، ذهبت إلى قصر العينى ورأيت المرضى المساكين وهم يعانون الموت وقد حاولت أن أتحدث مع واحد منهم لأعرف منه طعم الموت وآلامه، فلم يسمع منى ولا أجابنى لأن هذا الميكروب الذى نقول نحن إنه فى غاية الضعف كان قد تمكن منه وساقه إلى الموت، والله سبحانه يحرسنا كلنا من ذلك الموت البشع.

وأنا أعتقد أن الحكومة عندنا لابد أن تقرر عقابا على القذارة وتوقعه، لأن الناس عندنا مهملون وهم لا تهمهم النظافة مادامت الحكومة لا تطبق عليهم عقوبة القذارة إلا إذا حدث منها مرض، وأذكر أننا ذهبنا مرة إلى بولاق لنقوم باستطلاع عن حالة رجل أقام حفل زواج لأبنته وأقام أنوارا ضخمة والحكومة قررت إطفاء الأنوار.. ولكنها لم توقع غرامة على ذلك الرجل.. وقد ذهبت مع المصورين وأدهشتنى الأضواء لأن الشارع كله كان منيرا، والرجل مد خطوطا من اللمبات الكهربائية من بيته إلى البيت المقابل وأضاءها كلها بحيث كانت تغشى العيون والحكومة لم توقع على الرجل عقوبة وإنما اكتفت بإطفاء الأنوار وأخذ اللمبات، فليست هناك عقوبة على مثل هذه المخالفات البشعة التى تتكلف مئات الجنيهات، وأنا شخصيا غضبت وكتبت مقالا عنيفا وجهت فيه اللوم الشديد للحكومة لأنها لا توقع غرامات على مثل هذه البشاعات، وقلت فى مقالى إن الغرامة التى توقعها الحكومة ينبغى ألا تقتصر على عقوبة الأنوار البشعة بل على القذارة وقلت إن القذارة جنحة أو شيء مثل الجنحة وإن الذين لا يراعون النظافة ينبغى أن يعاقبوا على القذارة. ويومها سخر الرجل منى وزرانى عضو مجلس النواب عن هذا الجزء من بولاق.. ومضى يسخر منى ويقول: تطالب

الحكومة بأن تعاقب هذا الرجل وتقول إنه قذر؟ ألا تعلم أن هذا الرجل من كبار تجار بولاق ولديه الملايين فهل يجوز لك أن تقول عنه إنه رجل قذر؟ فقلت له: وماذا نفعل إذن؟ هل نطالب بمنحه مكافأة لقذارته إكراما لك أنت فأنت محاميه وأنت نائبه؟ فهز الرجل رأسه وقال: إن هذا الرجل يدفع للحكومة مئات الجنيهات كل سنة لأنه تاجر كبير ومحترم جدا.. فقلت له: أعتقد أن الغرامة التي توقع على هذا الرجل ينبغي أن تكون أضعاف ما فكرت أنا فيه، فهو غني وتاجر عظيم وسيادتك لابد تعتمد عليه في انتخاباتك وأنا أرى الآن أنك ينبغي أن تدفع جزءا من الغرامة عقابا لك، فأنت رجل مهم وأنت قائد أولئك الناس وأنت وسيط بينهم وبين الحكومة، وإذا أنت لم تدفع جزءا من هذه العقوبة فمن الذي سيعاقب أولئك الناس إنهم أغنياء فعلا ولكنهم أقذار، فهم يؤذون بلدنا بهذه الأخلاق، ولا يمكن أن تتقدم بلادنا مادام أمثالك من النواب العظام يدافعون عن أولئك الناس لأنهم يكسبون منهم الألوف.

وأذكر أنني لقيت المرحوم الأستاذ محمد عبد الله عنان في مدريد في صيف سنة ١٩٥١م، وكانت حكومة الجنرال فرانكو بعد أن انتصرت في الحرب الأهلية ووصلت إلى الحكم فرضت عقوبات على قضايا المرور، وأراد الأستاذ عنان أن يعبر الشارع في موضع يحرم فيه العبور، لأن الحكومة حددت مواضع العبور، ورجل البوليس أوقف الأستاذ عنان وناوله إيصالا بمبلغ خمس بيزتات هي عقوبة العبور في غير مكان العبور، والأستاذ عنان غضب ورفض أن يدفع، فقال له رجل المرور إذن نذهب بهذا الإيصال إلى مركز البوليس وتدفع هذا المبلغ هناك، ولاحظ أن الدفع ينبغي أن يكون اليوم أو غدا، ورفض عنان ورفع صوته، فأخذ الرجل منه الإيصال وناوله إيصالا بعشر بيزتات وقال: مادمت لا تريد أن تدفع هذه الغرامة فأنت إذن لابد أن تدفع عشر بيزيتات، وبعد مناقشة طويلة دفع الأستاذ عنان مبلغ البيزتات العشر، ومشى معي وهو يسب هذا النظام ويقول إن فيه عقوبة غير عادلة للشعب، ولم أقل له شيئا ولكن لاحظت عندما سلمت عليه

وسار إلى فندقه وأراد أن يعبر الشارع نظر فى الجهتين ثم قال: ليس من هنا، سار إلى موضع العبور وعبر، ويومها قلت فى نفسى: إذن فقد تعلم أخونا عنان لأنه من ذلك اليوم لم يعبر الشارع فى أسبانيا إلا من موضع العبور.

وأنا أقول لك هذا الكلام لأننى أرى كل يوم فى التليفزيون برنامجا صغيرا يخصص لناس يشكون من إهمال الحكومة لشوارعهم وتراكم الزبالة ومياه الطلمبات فيها، والمناظر التى تنشر بشعة جدا، وشكوى الناس أليمة، ولكنى أعرف أن الناس هم المسئولون عن تراكم الزبالة والمياه الطافحة، فهم فى الغالب لا يأخذون الأذون اللازمة من الحكومة لبناء البيوت، ولكنهم يقتحمون البناء اقتحاما ولا تكون فى مواقع بيتهم مراكز للكهرباء أو النور أو الغاز، وقد رأيتهم وهم يغزون الأراضى الزراعية غربى شارع الهرم ويبنون حتى أكملوا شارع فيصل.. وهو شارع طويل ولكنه فوضى، وسكان الشارع وهم أصحاب البيوت فى نفس الوقت لا يكنون عن الشكوى لأن بيوتهم محرومة من النور والكهرباء والماء، وقد تكلفت الحكومة الملايين لكى تنشئ لهم هذه المرافق وتريحهم من مواقع الزبالة، لأننا فى مصر لا نوقع العقوبات على المهملين والأقذار، والناس لا يراعون نظاما ولا يريدون أن يدفعوا الغرامات. والنتيجة هى ما ترى، لأن شارع فيصل إذا أنت قارنته بشارع الهرم الموازى له لم تصدق نفسك، وقد حددوا ارتفاع المبانى التى يمكن إنشاؤها فى حى الزمالك من نحو شهرين وسترى أن الناس سيبنون إلى أى ارتفاع يريدون ولن يتعلموا النظام إلا بعد زمان طويل وسترى.